

التراث والثقافة الشعبية الجزائرية

- القرية أنموذجا -

د. الشايب ورنقي

جامعة الأغواط

الملخص :

محاولة التعريف بعالم التراث والثقافة الشعبية ، ذاك الإرث التقليدي كونه جزء لا يتجزء من تراث العامة الذي يتصف في جوهره بالتمسك بالقديم وحاملا بذلك كل ما خلفه السلف من قيم وعادات وتقاليد و طقوس وتاريخ...مشملا على : أولا : الجذور المركبة للتراث الشعبي لأنه حصيلة إرث متناقل عبر أجيال و فئات أدت بدورها أدوارا في دفعه للتحول و التغيير.

ثانيا : مظاهر هذا التراث و المقارنة بين القديم و الحديث كاحتفالية الزواج والموت...الخ والاختلاف بينهما يدعونا إلى المرور بمستقبل الثقافة الشعبية الجماعية و ذلك بالتركيز على عناصرها التي تدخل تحت تسمية الانثوغرافيا (كالييت و الملابس و الماكل...) ، بالإضافة إلى العناصر الثقافية المادية كالآلات التي يستعملها الفلاح مع اجراء مقارنة بين القديم و الحديث، من كل هذا كيف نواجه الحداثة بثقافتنا الشعبية باعتبارها درع من دروع الهوية و الانتماء؟؟

الكلمات المفتاحية : التراث الشعبي - الثقافة الشعبية - الاحتفالات - القرية الجزائرية - الحداثة .

مقدمة :

التراث الشعبي يتميز على ما عداه، من كونه القطاع التقليدي والبسيط الساذج من تراث العامة، خاصة التراث القروي - الفلاحي والرعي، حيث إن الذين انتقلوا من الريف إلى المدينة، قد حافظوا على القسم الأكبر من عاداتهم وتقاليدهم، وبالتالي فإن المدينة لم تستطع أن تطبعهم بطابعها، فالتراث هذا الذي فكر فيه الإنسان ومارسه في حقبات تاريخية موعلة في القدم، قد أصبح الناس يمارسونه بالسليقة كتقليد وعادة، رغما أنه يحوي في تراكيبه ، ويتكرس في مضامينه الكثير من البديهييات والتقاليد والأساليب التي تتقارب في ما بينها، ولا تتصل اتصالا عمليا عصريا يدفع لحالات تكيف جديدة. هذا التراث في جوهره يتصف بالتمسك بالقديم وقد يتأثر بعادات العصر، إلا أنه يبقى التراث الذي يحمل المنتجات الثقافية التي خلفتها الشعوب القديمة في علاقاتها مع بعضها، وفي ما تحمله بعض الشرائح الاجتماعية ، من قيم وتقاليد منه ، قيم تتصف بالبساطة والعفوية ولا عجب فمفاهيم التراث الشعبي لا زالت تعيش بيننا كمفاهيم عاطفية. إلا أننا لا يمكن إلا أن نتابع عبر هذا التراث وحامله، المنتجات الحضارية التي لم تعد تمارس إلا بصفتها رواسب خاصة بثقافة فئات بل شرائح اجتماعية معينة .

إن ما يمكننا الولوج إليه عبر الثقافة الشعبية وحاملها، كون ما هو شائع منها، قد أصبح عادات وسلوكيات تراثية ، يتم تناقلها تقليديا وتكرارها عبر هذه الفئات وتلك الشرائح. فالقرية الجزائرية مثلا، هي التي يحمل سكانها هذا التراث وينقله أبنائها حيثما وجدوا، وقد نرى شرائح اجتماعية تحديثة في المدينة، تنتقد هذا التراث وتلك السلوكيات، مسلطة الأضواء عليهما، وبالتالي فإن هذه الشرائح في نقدها هذا، تحاول حذف أساسيات من هذا التراث، أساسيات غير ملائمة لما تعتقد به، مطبقة تركيبات جديدة ومحولة ، تعتقد بها وتعمل من أجلها.

عبر ذلك ومن خلاله نتابع في التراث الشعبي المتناقل والشفهي منه ، عادات وتقاليد ومعتقدات كانت شائعة قديما، ثم جرى حذف بعضها، وأضيف إليها الكثير. إن متابعتنا لما حذف أو أضيف، هي متابعة لذلك الجزء من التفكير والعادات التي سادت في الماضي، والذي قد يحتوي الحاضر على ترسبات منها، إذ نرى البعض من الأحياء والمعاصرين يأخذون ببعض الجزئيات من العادات والتقاليد، يأخذون بعضا من عادات وتقاليد عتيقة ، أو من حالات نفسية وسلوكيات متوارثة ، لم تمت حتى تاريخه¹ ، ومن هذا التراث نتابع أيضا، بعضا من ماضي الآداب التقليدية العتيقة الخاصة بمجماعات أو شعوب، بما فيها ماضي تلك الأديان التي تكون قد اندثرت أو زالت ، وبالتالي متابعة تلك البقايا من الثقافات القديمة السابقة على ما نحن نعينه وما نفكر فيه².

لذا فالتراث الشعبي، والذي يتكون ويتجدد باستمرار ودون توقف، قد يمارس بطرق لاشعورية، سواء عبر أفعال الناس ، أم عبر أقوالهم وعلاقاتهم ، خاصة أن الشائع من هذا التراث، لا يتعلق بآداب السلوك وبما يراعى الناس من معايير وقيم، بل أيضا قد نجد فيه الكثير من الضروريات المسبقة ، التي قد تساهم في اكتشاف القوانين المساعدة على التطور. أوليس التقدم العلمي الحقيقي، من الثمار الحقيقية للتقدم الذي سبق وللحاجة التي ستأتي؟ أو لم تعط العادات والتقاليد الشعبية للإنسان بعض من الأمان، ومن خلالها يتم ممارسة الكثير من السلوكيات ذات القيم الأخلاقية المتحولة والمركبة التي تتكيف مع العصر ومع حاجات الإنسان؟ كذلك ألم نزل الحكاية الشعبية، وفي مجمل المجتمعات التقليدية، تؤدي دورا مهما في تكوين الذاكرة، سواء من الناحية التاريخية أم على صعيد التقليد والسلوك.

إن الثقافات الشعبية المتناقلة بتراتها وبطابعها التقليدي وبنهاها السلوكية كعادات وتقاليد وطقوس، قد نراها في مجرياتها في حالة من الخضوع الكامل لغيرها من ثقافات غالبية. ولكن هذه الثقافة أو الثقافات، نراها أيضا في حالة من الدفاع والتفوق والتعصب لما هي فيه. إن عمليات التغيير التي تتعرض لها هذه الثقافات لا يقبلها البعض بسرعة، ولكننا نجد بأن ما ستأخذه من هذه الثقافات سيضاف إليها. وقد نجد مثلا، بأناساطير وثقافات الشرق، قد أصبحت جزءا أساسيا من التراث الغربي خاصة الجزء الديني منها، كما أن تقاليد وثقافات الثورة الصناعية قد أصبحت أو تكاد جزءا أساسيا من تقاليد الشرق. وسيصبح ما يؤخذ تقليدا مكررا فمتحولا مع الزمن.

1- الجذور المركبة للتراث الشعبي الجزائري :

مما سبق نرى أن الإمكانية المتاحة للتعريف بالتراث الشعبي وثقافته، ليست سهلة كما يتصور البعض، فالجذور كما الفروع، هما حصيلة الإرث الموروث والمتناقل من أجيال متصلة ومتواصلة قد حصل لها الكثير من التحولات والتبدلات، مما أسغ على هذا التراث الشفاهي، بخصوصياته المحلية، واشترائه كموروث مع جهات أخرى قريبة أو متباعدة عنه، الكثير من عمليات التحويل والتغيير، والتلاقح، حيث نجد استحالة في متابعة بدايات هذا التراث والإضافات التي حملها، كذلك التحولات والتبدلات التي عرفها، كما قد نجد الاتجاهات التبشيرية الدينية والثقافية والسياسية خاصة من قبل الفئات التي نقلت التراث الثقافي وسجلته، نراها بأنّها أدت دورا في المزيد من الالتباس، وبالتالي الدفع للمزيد من التحول والتبدل والتغيير في بنية ووظائف هذا التراث. لذا فإن الصراع بين التراث الشعبي بما يحمل من تقاليد ورواسب، وبين التراث الحديث بما يحمل من ولادات للقيم ومعايير لضرورات من الواقع، يكمن في هذا الصراع القوة الدافعة للتغيير والتبدل، وحالات التبدل ما هي إلا نهاية لحالات وتراكمات وأفكار ووقائع معينة، وبداية لتطور ونمو تراكمات أخرى فيها من التناقض ما يمكن أن يدفع لاحقا لصراعات وتبدلات أخرى.

لذا فإن الطبقات التركيبية للتراث الشعبي، قد تبدأ من بدايات موعلة من المتابعات لممارسة وتفكير الإنسان القديم، ((السومريون ومن سبقوهم والبابليون والآراميون والفينيقيون والكنعانيون والفراعنة والحثيون والآشوريون ، والكلدان والفرس واليونان والرومان والبيزنطيون والبرابرة وغيرهم ...))³ ومن ثم المرحلة الجديدة التي تمثلت بالإسلام، ومن ثم حالات التفكيك والتركيب التي مارسها الغرب عبر سيطرته الصناعية والعسكرية، التي تكاد تكون مستمرة بأشكال مختلفة ومتعددة، كما أن هناك شعوبا كثيرة تأثر تراثا بتراتها، سواء عبر الاحتكاك بيننا وبينهم أو بين سكان المنطقة وغيرهم، ممن حصل احتكاك معهم بسبب التجارة والحروب (والثقافة) أو غيرها من حالات احتكاك وصدام وتلاقح وتفاعل، قد تكون حصلت عبر الهجرات السكانية خاصة من الجزائر للخارج ، وللبلاذ العربية والعكس بالعكس ، أو من بقايا الشعوب التي عرفها الوطن العربي، والتي قطنت المنطقة العربية خاصة الجزائر وكان كل من هذه الشعوب يترك بعد رحيله بقايا من آثاره وثقافته ومنجزاته أو من أتباعه وجنوده ، كالأستعمار الفرنسي في الجزائر وما تركه من مخلفات ، وترك أشخاصا من الفرنسيين هذا القسم اختلط مع السكان المحليين، وتفاعلت عاداته مع عادات وتقاليد الجزائريين، وما إلى ذلك .

في متابعتنا لهذا التراث نجد أن قسما من تراثنا الشعبي كذلك من فننا وشعرنا وعاداتنا وتقاليدنا الإسلامية وغيرها، ليست أكثر من قشرة خارجية، تسبقها وتحيط بها طبقات عديدة من التراكم الحضارية، ذات الأغوار البعيدة ، كموج البحر، أو كالدوائر التي تحدث عندما نغلف شيئا ذا وزن في المياه، وهذه الوضعيات قد لا تمكننا وبسهولة التي يفترضها البعض، من دراسة هذا التراث، التراث الذي يتميز بما يقال ويحكى ويمارس وينظر إليه ويفكر فيه بمنعزل عن قناعتنا بوجود تلك المؤثرات المختلفة التي ذكرنا، أو بمنعزل عن وجود مؤثرات اجتماعية وثقافية وحضارية لهذه التعددية من الشعوب، مما يعني لنا عدم قدرتنا على متابعة التحول والتبدل الذي عرفه هذا التراث، وأدى به كي يأخذ خاصيات عربية، ذات تعددية مشتركة . مع شعوب عرفتها هذه المنطقة "عرب وأمزيغ ...، تعددية تحوي من المؤثرات والفعل وأساليب الحياة، والتكيفات والعلاقات و الظروف النمطية للحياة التي تختلف من جهة لأخرى .

إذا، فإن إمكانية متابعة الرواسب الثقافية وغيرها في هذا التراث، بما هي عادات وتقاليد متحولة، امكانية قد تكون معدومة النتائج، وإن كان هناك إمكانية محدودة للتحقيق في بعض الأحيان، وللتخمين حول تلك الأصول وكما يفعل البعض في أحيان أخرى .

وفي خضم هذه الوضعية، قد نرى أن الجزائر ، بما هي جسر لثقافات وحضارات، امتدادا لما يحيط بها حيننا، ومتنوعا في ذاتها أحيانا، تنوع هذه الوحدة وتلك الرقعة الجغرافية والبشرية، وفي تكاملها مع هذه الحضارة العربية حيننا آخر ، واستمرارية تأخذ بعدها عبر مصالح هذا الخارج سواء كان عربيا أم غير ذلك، وكما هو حاصل اليوم⁴ .

وبهذا كله فالتراث الشعبي، الذي يرفض الاستسلام، رغما عن حالات التبعية لغيره تراث له مفاهيم وظيفية، يحملها المجتمع . ويتصادم هذا التراث وحاملوه يوميا مع ثقافة المدرسة والجامعة، وغيرها من ثقافات علما ، قد تحاول الخروج والانفصال عنه . والتراث هذا بطبقاتها العديدة، وبحالات التحول والتركيب والتبدل الجارية فيه، قد يبدو أيضا كتراث شراكة مع شعوب وحضارات أخرى، وآثاره الموجودة هنا وهناك، قد تكون شاهدة على ذلك ، خاصة في ثقافة المستويات الدنيا في التركيبة العقلية والذهنية للطبقات الشعبية⁵ .

2- احتفالية الزواج بين الأمس واليوم:

بالزواج نعتي اقتران فردين في مجتمع، ذكر وأنثى عبر إقامة حفل خاص، علني يشارك فيه أفراد المجتمع، بل يكونون فيه شهودا على ما يجري، ومساعدين في بعث عائلة جديدة. وهذا الحضور الشعبي الكثيف المحتشد بغية معانة شرعية العلاقة التي تكون عادة، أسيرة المعتقد الشعبي، الحلال والحرام، الذي يحذر من إقامة علاقات جنسية بين رجل وامرأة من دون عقد. وإن هذا الاعتقاد يظهر بوضوح، من خلال حياتنا اليومي. فلقاء الذكر والأنثى، في حضن الزوجية ليس حدثا عاديا في حياتنا الاجتماعية. فهو يلي أكثر من حاجة في آن، منها الإنجاب والتواصل مع المجتمع وقضاء دافع الجنس، وهذه الاحتفالية المهمة، تتطلب عملا جماعيا، من التسميع إلى الطلبة، وتحديد المهر، والخطوبة واستعدادات القص والتقميش والفرش وخلافها.. وصولا إلى المرحلة الأهم في هذه الاحتفالية، وهي العرس.. الذي يعتبر ظاهرة لها وقعها الخاص، في نفس كل شاب وفتاة فتري الفتى يوعدها وهو في عمر الورود، حيث تستقبل العروس بأهازيج من قبيل أهل الزوج مرددين:

بسم الله بسم الله و الصلاة على رسول الله

جَايَةً بِالْعَادَةِ وَ بَنْدِيرَهَا يَنْفُحُ
وَمَبَارَكٌ مَا دَارَ عَيْنَيْنِ الطَّيْرِ
الْحَنِيمَةَ كَبِيرَةً وَالْعَلَامَ يَرْفُقُ
وَمَبَارَكُمَا دَارَ عَيْنَيْنِ الطَّيْرِ

— فيما يُستقبل العريس بالأهازيج في كامل التراب الجزائري وكل منطقة لها أغانيها الخاصة بها فمثلا أهل شمال الصحراء الجزائرية يرددون:

مُولَايَ السُّلْطَانِ عَرَشُ النَّعْنَاعِ
اللِّي عَنَقَانُهُمَا تُشَوِّفُ النَّارُ
الْحَمَامَةَ وَالطَّيْرِ الْحُرَّ فِي السَّمَاءِ يَتَلَقَّوْا
مُولَايَ السُّلْطَانِ جِدِي الْعُزْلَانِ
كِي السَّيْحُ يَقَاطِعُ الْوَيْدَانَ⁶

— و يغني الأطفال الصغار قائلين:

تَنْفَاوُضُو دُورُو دُورُو
تَشْرُو تَفَاحَةَ لِرَقِيقِ النَّابِ⁷

فيوم الدُخلة مقياس أساسي في حياة الذكر. فإما أن ينجح فينجح المجتمع في بناء أسرة جديدة، وإما أن يفشل فيضطر المجتمع لمساعدته بطرق عديدة منها الطبية والنفسية والروحية وغير ذلك..

إنَّ إيجابية هذه الاحتفالية الاجتماعية هي غرس روح التعاون والمحبة. وتتجلى فضلا عما ذكرت بالرقصوقع الطبول، شهادة على الحضور وصنع الحدث وإعلان عن الخروج من روتين الحياة. في هذا الشعور العام بالفرح، وبرغم العرق المتصبب، يرسلون زغاريد، ويدعون أزجالا شعبية، ومحاورات غنائية على أنغام عازف القصب، تارة، والدفوف والطبل والدربكة تارة أخرى، ويعددها، تمثل ظاهرة العقد مع نقل العروس، وجمع النقود، والهدايا والتعاون المقترن بالألفة والمحبة والجماعة... وهكذا تتحد القرية والجوار، في تجهيز وإعداد بل دفع فردين منهما إلى بناء أسرة تتألف مع المجتمع، وتشارك في همومه وشجون، فضلا عن الأحزان والأفراح ورد الغزوات.

إن حفلة الزفاف، الذي بات يقتصر اليوم على احتفالية لاتدوم ساعتين، أو أكثر، قليلا في المدن، قد قتلت عند المجتمع روحية التعاون، واستبدلت آلات الطرب التقليدية الجزائرية، بمجموعة من الآلات الغربية.

3- احتفالية الوفاة:

لن أدخل في كل تفاصيل هذه الاحتفالية، التي كانت في عرف الناس "واجبا". فكلمة "واجب" لها دلالات عظيمة، فهي تعني الالتزام الأدبي بالمشاركة المجانية، مع المجتمع مع ما تفرضه من روحية طيبة، وذوبان للجماعة في الأفراد، فالمشاركة

في دفن المتوفى، واجب، يشارك فيه أهل القرية أهل الفقيد. بل كان أهل الفقيد يلقون معاملة خاصة، فلا يشاركون بشيء منالترتيبات اللازمة، لأنهم مصابون، وعلى الجماعة احتضانهم ومداواة جرحهم، والإنابة منهم لكل ما هو مطلوب.. وفي الأسبوع، تكون مشاركة الجماعة الكثيفة بارزة.. فبيوت القرية مشرعة الأبواب، أمام الوافدين والمعزين.. يُعد أصحابها الولايم، طبعاً، وتراهم مرابطين على مفارق الدروب المؤدية إلى القرى المجاورة التي يحضر أبنائها للمشاركة أيضاً، بمجرد سماع صوت الناعي.. ويستحلفون الناس على عدم المغادرة من دون تناول الطعام، ولا يسامحونهم إذا ما أصروا على الذهاب جائعين... مع ما تحمله "المساحة" في ديننا الحنيف من بُعدٍ وقداصة.

وفي مجالآخر، تحمل الجماعة نعشا والميت بداخله مغطى بستار أو غطاء موضوع عليه والجماعة تسير إلى المقبرة وهي تردد:

لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا إله إلا الله محمد رسول الله... أو ما تسمى بالردة خاصة الذين يحملون فكراً صوفياً، ومنهم من يمشي في الجنارة صامتا. وأما الآن يبدأ الأسبوع، حتى يتحول إلى مهرجان تكريمي يشارك فيه الأدباء والشعراء والزجالون مع رجال السياسة والدين.

واليوم، بقيت أكثر تلك المظاهر، ولكن الحداثة فرضت على أهل الفقيد، استقبال الناس وتقديم وليمة قد تكلف الكثير الكثير، يصبحون معها واقعين تحت عبء مصيبتين، فقد العزيز، والديون التي تريد عن طاقات البعض.. هذه الظاهرة التنافسية في البروز والتقدم، بدأ بعض المصلحين من رجال الدين يلتفتون إلى نتائجها السلبية على الأفراد المصابين. وهذه الإصابة لن توفر بيتا في المجتمع، فراحوا يشيرون إلى إجراء احتفالية الأسبوع في فترة ما بعد الظهر... إن الحداثة، هنا، ألغت دور الجماعة وعززت دور الفرد بما سيتحمله من أعباء..

4 - مستقبل الثقافة الشعبية الجماعية⁸:

يقصد بعناصر الثقافة المادية أو الجماعية، كل الأشكال التي يحتاجها الناس في حياتهم، ولا يمكنهم الاستغناء عنها، أو العيش من دونها، بحال من الأحوال، نظرا لارتباطها بحياة الإنسان وكرامته وإنسانيته وهي متطلباته الأساسية. وهي: البيت والألبسة والمأكّل، والحرفة والصناعات والآلات التي يبدعها لتكون عوناً له على حياته. وهذه العناصر دخلت تحت تسمية جامعة هي "الاثوغرافيا"⁹.. وسنبداً بالبيت.

1- البيت: للبيت معان جلية، وحرمة لا يحق لأحد اختراقها، فهو آخر ما يباع وأول ما يقتنى. وهو يستحوذ على تفكير الإنسان لدى إقدامه على مشروع زواج وتأسيس عائلة.. وإذا ما أقدمت العائلة على بيع بيتها في المجتمع الريفي، فهذا يعني وقوعها في ضنك شديد فيسرع أبناء القرية لمساعدتها، لأنّ "الجار للجار ولو جار" والمثل الشعبي الجزائري هاهو يوصي كل واحد خيراً بجاره:

"وجارك القريب ولا اخوك البعيد"، من هنا نلاحظ ذلك الاندفاع الشديد، لتقديم يد العون والمساعدة، لكل من يقدم على تشييد بيت جديد. لأنهم يعتبرون قيامه، ولادة حليف ومدافع جديد معهم. لذلك نراهم يقولون "الله أوصانا حتى للجار السابع". وكما يتوارث أبناء القرى العادات والتقاليد يتوارثون، "المعاونة" و"التوزيع"¹⁰ أي المساعدة المجانية. هذا البيت كان بسيطاً موزعاً بانتظام مدروس، ودقة متناهية ليحابه اعتداءات الإنسان، وعوامل الطبيعة، مع غدر الزمان ونوائبه.

ففي تجمع البيوت وتلاصقتها وتكاتفها، تكاتف لأبنائها وتوادهم، وتعبير عن الحذر الشديد والخوف المسيطر على أصحابها، وتأهبهم الدائم لرد أذى المعتدين واستعدادهم لإعادة البناء إذا ما تعرض للهدم (وكثيرا ما كان البيت ولا يزال هدفا للإحراق والإلغاء) في غير منطقة... وهكذا يجسد المنزل أهمية التعاون الجماعي...

على المستوى الهندسي شهد البيت تطورا كبيرا من الناحية الفنية والتقنية. فالبيت القديم الذي كان عبارة عن غرفة واحدة، تشاركه بها البهائم والطير. أصبح اليوم كبيرا، فمادة الطين البالغة السماكة، فقدت أهميتها أمام حداثة آلات التدمير وانعدمت فائدتها أمام منجزات العصر العسكرية، والمدافع العديدة، والقذائف المختلفة العيارات. وعملية تلاصق البيوت، التي كانت تسهل عملية الاتصال وطلب النجدة وتسرعها فقدت معناها اليوم أمام وسائط الاتصال الحديثة.. والطين تم استبداله بالإسمنت رحل الكلس وحل الدهان الرائع مكانه. والسقف الترابي ولى مع خشباته وأتربته والقناطر والعتبات لم يعد لها ذلك العز "الدنيا وجوه والاخرة بالفعائل" ¹¹

"اللي يحوس يدير الشأن لازم يعلي باب الدار". ¹² والمعاونة.. بما تعنيه من اندفاع مجاني جماعي لنجدة الفرد ومساعدته في البناء، ذهبت، وصار اليوم "كل واحد يتوكل على روجه" ¹³ و "ضربة خاطية راسي نحسها في الحجر" ¹⁴ والتوزيع رحلت مع أنها كانت تشكل حقا من حقول الابداع، تجري فيه الحوارات والإبداعات الغنائية وتتشابك أيدي الجماعة مع يد الفرد وصولا إلى التماسي بعائلة جديدة.. والحق كل الحق في إغائه يقع على جباله الإسمنت التي كمت الأفواه، وأخرست الحناجر التي كانت تزغرد لدى الانتهاء من العمل..

صحيح أن سطح الإسمنت آمن، ولا يحتاج إلى حدث سنوي، أو موسمي وإلى تغيير خشبات كبيرة أو صغيرة، والبلاط الحديث وأثاث البيت المتواضع حرفته الحداثة واستبدلته بمجموعة من قطع الأثاث اتفق على تسميتها "الصالون وغرفة النوم" وغرفة "الطعام".

رحل الركال و الزكرم والمفتاح وركيزة، و"باب الشباك" ليحل مكانه أبواب جرارة، تارة ومعدنية أخرى أو حديدية.. مع الستائر، وصار الباب يفتح الكترونيا وعلى الكهرباء وبمجرد ملاسة الأقدام لمسافة قصيرة منه...

رائع ذلك التطور الحاصل على هذه المستويات لأن إيجابيات الحداثة هنا كبيرة، فقد أفردت لكل شخص غرفة في البيت، ومنحته استقلالية وأراحت أفراد العائلة من أعمال نقل المياه، وتكاليف الإنارة، ووفرت من جهة ثانية على العمال أتعابا كبيرة. فمخترع الإسمنت مثلا، درس الحركات التي يؤديها العامل خلال عملية الصب واختصرها.. من هنا، أصبح بإمكان أربعة عمال فقط أن يسيروا آلة الجبل ويديروها. قاطعين الطريق، بذلك، على عدد كبير من العمال، سادين بالتالي، أمامه الطريق إلى لقمة العيش.. من ههنا نشأت البطالة، وأخذ العمال يطالبون بأجر كامل عن عدد الساعات القليلة التي تستلزمها عملية الصب.. صحيح أن الجباله وفرت علينا أتعابا، إلا أنها أخذت منا مقابلا لذلك، وهو الصفاء والطيبة.. فأبناء القرى اليوم، باتوا يتسابقون إلى الشهرة المرتجاة عن طريق إشادة البيوت. ويتنافسون على المنافسة على نوعية الأثاث وجماله.. ومنهم من عاد إلى القرية غنيا بعد فقر أصابه هنا، ترك بصماته السلبيه على نفسه وروحته.. فقرانا اليوم، لم تعد قرى أصبحت غابات من الإسمنت المسلح المتساق في العلو، تسكنها أرواح فقدت الطيبة والبساطة، كما فقدت الروح الجماعية، وبات كل واحد يشكل عالما قائما بذاته.. فأكثر أبنائنا هاجروا مدفوعين بحب العيش والبقاء، وعادوا مدفوعين بحب المباهاة والبروز. ومع كل غابات الأعمدة والأبنية الشاهقة، يظل واحدنا مشدودا إلى شربة ماء من البئر التي ولت بعد وصول الثلاجات العصرية. وأن الفرحة التي يحسها الناس عند عقب الانتهاء من الصب الجماعي، عظيمة، والحلويات التي يتناولونها تفوق حلاوة السكاكر والحلويات الإفريقية الحديثة...

2- على مستوى الملابس :

يمتاز الزي العربي إجمالاً، بالاحتشام والتواضع، ومن خلال خطوطه وأشكاله وألوانه يلمس المرء تجانسا وتناسقا ينمان عن ذوق جميل. وقد تأثر العرب كثيرا بلبس أنبيائهم، وقد أتى زمن شذ المسلمون فيه عن توصيات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأكثر الرجال من التبرج والتحلي بالذهب والجواهر خصوصا، في العصرين الأموي والعباسي في وقت أفرطوا فيه بإخفاء محاسن المرأة ولكن هذه الأزياء العربية التي أبدعت وتطورت عبر مئات من السنين، بل الآلاف، راقبنا تطورها، فوجدنا، أنها بدأت تتبدل منذ ربع قرن تقريبا. فالزي العربي القنباز مع الكوفية، والسروال والجاكيت (السترة) وغيرها، قد ألغي بشكل شبه نهائي ولباس المرأة المنديل مع الفستان الفضفاض، والسروال الطويل قد استبدل بلباس آخر في حين بننا نجد نسبة اللواتي ما زلن يحتفظن بعملية ارتداء القنباز قليلة إلى درجة تقبلنا فيها عملية الاستبدال بسهولة.

وأضرب مثلا آخر: العمامة. فهي تيجان العرب وبها عزهم. وعمائم العرب محنكة يبقى العرب ما بقيت عمائمهم، مع أن العمامة عصاية قديمة الاستعمال، لبسها قوم موسى، والفينيقيون، وكانت عمائمهم مستديرة. من هنا أنها عرفت وحدة الشكل باختلاف في اللون عند رجال الدين كافة. وعرفت العمامة في الجزائر عند سكان الجنوب خاصة.

إن التطور العصري اليوم، أعفانا من اعتمار العمامة، ومن اللباس العربي، نظرا لانعدام الحاجة إليه، لأننا تحولنا من بيئة ريفية زراعية، تتطلب الألبسة الواسعة إلى بيئة مدنية.. وهذا التحول، أفقدنا اعتزازنا باللباس وتميزنا به ومع الحداثة بات لا يمكننا الكلام عن أزياء حديثة وأزياء غير حديثة، والمصممون اليوم يعملون على تقليد الغرب، ومع ذلك نكون خسرنا روحية كنا نباهي بالانتماء إليها..

3 - المآكل:

تطورت المآكل مع الإنسان، الذي حافظ على ما يتلاءم ومذاقه ومراحه وإسقاط تلك التي لا تتلاءم مع طبعه ومذاقه. لذا، بتنا نرى أن الشعوب تتوارث طعامها وطرائق طهيها وتقليدها، كما تتوارث أغانيها ولبسها ولغتها وطرائق معيشتها وأمثالها وغير ذلك من فنونها الشعبية ولما كانت المآكل تشكل عاملا مهما في الماضي لبقاء الإنسان حيا فقد أجبر على الاهتمام بنوعية المآكل والاعتناء بها. على عكس ما يحصل اليوم، فالإنسان بات اهتمامه منحصرًا بكمية الأصناف التي يحشدها على المائدة الواحدة، من دون الانتباه إلى خطورة النوعية والمركبات الداخلية. وهذا الأمر سرعان ما سيؤدي بنا إلى الفناء فمآكلنا اليوم. تنضج ضمن آلات حديثة وتعطى مواد كيميائية، شأنها شأن المواد الغذائية الزراعية. المكونة من اللحوم والتي باتت تضخ هي الأخرى بمواد تسرع في إعدادها للأكل، وقل الشيء عينه عن الأسمك التي باتت تغتذي بقايا نفايات الحداثة... أننا نغفل مع حداثة العصر إلى رفض المآكل التي كانت تعني للمرء روحية القرية، فاندثرت العديد من الأكلات الشعبية التقليدية ، "فالخلزون" مثلا أو كما نسميه "البُوجْلُو" أو "الببوش" الذي كان يطهى كمرق بالكثير من البهارات (الرند ، السكنجبير، قرفة عود، زعتر، عرق السوس نعناع... و غيرها من التوابل)، و أيضا الأكلة الشعبية "خدوج فوق الدربوز" وغيرها من الأكلات ، أصبحت نادرة وقل الاهتمام بها نظرا لحصول المرء على أطعمة معلبة أسهل تناولا تتفق مع ما تقتضيه روحية العصر من سرعة.

5- عناصر الثقافة الشعبية المادية:

تتكون عناصر الثقافة المادية من الآلات التي اخترعها الفلاح، لتكون عوناً له على زراعته ، بدءاً بأدوات الحراثة، وتمهيد الأرض، وانتهاءً بأدوات الحصاد والتذرية وغيرها، إلى جانب الأدوات والمعدات المنزلية .

هذه الأدوات أهملت، مع إهمال الفأس والاستغناء عن خدماته الشاقة، وتم استبداله بالجرارات الزراعية. وبذلك نكون قد طوينا صفحة من أسماء تلك الأدوات، التي لا يعرف أبناؤنا عنها شيئا، "فالفأس والمنجل والحاشوشة و المحرفة والبالة ومشط الأرض"¹⁵، وغيرها كانت تشكل عود الفلاحة وتوابعه، فأضحت نادرة، حتى في القرى، مع أنها كانت ذات يوم عدة الفلاح، الذي قيل فيه يوما "احذف الفلاح من حقل الإنسانية، فكأنك قصصت من الطير جناحيه ونزعت من السفينة دفتها ومن الرحي قطبها.

وهنا، وفي معرض الحديث عن الآلات والأواني والمعدات، التي أسقطت بغالبيتها الآن من حساب الناس، لا يسعنا سوى إبداء الأسف، هذه الثروة من الكلمات العامية الأصلية، التي تتحلى بها الشخصية الريفية في الجزائر ستختفي قريبا عن شفاه الناس إلى الأبد.

وبعد نتساءل عن جدوى تلك الأدوات، في القرن الحادي والعشرين، عصر التقدم التكنولوجي. وبالاختصار، نجيب، أن الإنسان الذي عاف كل تلك الآلات، وبم وجهه شطر المدينة، عاد إليها عندما دفعت به الحاجة الماسة إليها. فخلال سنين العجاف، سيعود الناس إلى القرية، وأمام انقطاع المحروقات، راح الإنسان يفتش عن الفأس مثلا لتساعده على تقطيع الحطب وأرومات الأشجار، ولو لم تكن الفأس موجودة أصلا لاضطر إلى صنعها.

الخاتمة :

وبعد ختامنا نرى أننا، مع غزو الحداثة المشوهة لكل مستوياتنا الثقافية، الشفوية والروحية والجماعية فقدنا روحية الجماعة. ولا حل لنا، إلا بالعودة إلى رحاب الأرض. فالأرض هي الساحة والعين والنبع والحقول. والجماعة لا تعني الاجتماع فقط، بل هي المشاركة الإنسانية. فمع الحداثة، بتنا عاجزين عن إنتاج روحية الجماعة، ولا نزال نحاول فك حصار التطور المادي المضروب علينا، الذي فرض تطورا في العلاقات الاجتماعية، وإذا كانت غاية الحداثة هي إراحة الإنسان إلى هذه الدرجة، فإننا سنصل غدا إلى الاعتماد على الأطعمة المعجنة المعلبة ضمن مستوعبات تحمل بالجيب، مع ما يستتبع ذلك من استغناء عن الأسنان وعملها مثلا.

مع الحداثة، حصلنا على آلات متطورة غزت الإنسان نفسه، وطرحته بدلا عنه. "وصلت الموس إلى اللحية" فالروبوت رقم 2" القادم من كوريا، هذه المرة، رجلا آليا سويا. يبصر ويمشي، يكنس ويمجلى الصحون، ويتحكم بأمور عدة. ولكن الرجل الآلي ذاك، لا يمتلك قلبا ولا شرايين ولا دما وروحا. ولو وضعنا عشرين واحدا منه فلن يشكلوا جماعة.

أمام كل ذلك فإننا نقرع، من هنا ناقوس الخطر، خطر الحداثة المشوهة القادم من الدول المتقدمة تكنولوجيا، التي باتت تسرف بأغلال نفايات معاملها المشعة القاتلة والتي لا تعرف كيف تضع حلا لها. فالمزيد من النفايات السامة، يفرض مزيدا من تسرب الإشعاعات الذرية، ومزيدا من الاهتراء في طبقة الأوزون، التي أضحينا معها نلاحظ تغيرا أماميا في تقلبات المناخ، لم نشهده في حياتنا وصرنا نعاني مزيدا من حالات أمراض الجلد والسرطانات العديدة،

التطور الصناعي أمدنا بوسائل نقل فرضت علينا سلوكا ما، أو أراحتنا إلى درجة بتنا معها نشكو من مرض اتفق الأطباء على تسميته بمرض العصر، فالمكوث الطويل وراء المقود والمكتب، فرض تكلسا في فقرات الظهر، واشكالا عديدة من أمراض الشلل ..

صحيح أن الحداثة، وبهذه الوسائل والآلات والأقمار الاصطناعية وأشرطة الفيديو وكل منتجات الانفجار التكنولوجي، جعلت من وسائل النقل والتواصل آلات سحرية لحو الزمان والمكان، لتحول الأرض قرية عالمية. حقيقة، نقول، أن العالم تحول إلى قرية عالمية، لكن ذلك لا يفيدنا بشيء مادامت عندما أحوّل العالم قرية تعاني بأكملها من التطور الصناعي، لا

أربحها، وبالمقابل أحسر قريتي التي غزتها الحداثة فحولتها إلى مدينة تنوء بثقل بناياتها الشاهقة. إن قرية فيها قتامة البنايات ليست بقرية. وأخيرا، إذا كان للحداثة كبير فضل، فعلينا أن لا ننساق أمامها باستسلام، فهي جارفة ومغرية ويجب أن نحافظ على شخصيتنا التي تعرف كيف، تأخذ وماذا تأخذ.

الهوامش

- 1- عبد الحميد محمد : " روح الأدب " ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1، 1972، ص 119. ومادام الأدب الشعبي كما يقول الباحث في كتابه ((هو رباط وثيق لكل أمة يولد معها ويتعرع بجوارها ويتربى في تربتها ، ويجتث كل الحياة حلوها ومرها بلا تباطؤ ، فإذا هو بعد ذلك أدب شعبي لصيق بهذه الأمة مكين في روحانياتها متشبه في قاعدتها فيصير ترجمة وعنوانا)) فإن المجتمع بكبيره وصغيره يتطلع إلى هذا الأدب بشى أشكاله وألوانه التعبيرية (كالقصة ، السيرة ، القصائد الشعرية ، الألغاز و الأمثال الشعبية ...) ، وكذا يتطلع إلى ما تركه أسلافنا من موروث ثقافي مادي كحرفة التجارة والحداثة و الدباغة و الحياكة وصناعة الأحذية والملابس التقليدية (كالبرنوس التقليدي والحيايك النسوي ومنسوجات أخرى من القطن و الكتان...) .
- علاوة على ذلك اشتهرت الجزائر بصناعات تقليدية أخرى عبر مختلف مناطقها كحياكة الصوف وصناعة الزرابي والجلود ، فضلا عن أخرى تخص المواد الغذائية كطحن القهوة وصنع المربي وتجفيف العنب وعصر الفواكه... إلخ.
- 2- رشدي صالح : الفنون الشعبية ، دار القلم بالقاهرة ، 1961، ص 121، كذلك اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، القاهرة، الأنجلو المصرية، 1965، ص 95، كذلك الأدب الشعبي (محاضرات) د. عبد الحميد يونس جامعة القاهرة 1960. ص 65.
- وقد عُرف سكان الصحراء في الجزائر بالقيافة، كوسيلة لتتبع أثر الإنسان والحوان في المناطق الصحراوية. هذا وقد نقل العرب نصوصا يونانية في علوم الطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم، وهذا لا يعني بأن تلك العلوم لم يطورها العرب، بل قد يكون حصل شىء من هذا، بحيث لم تطبق كما عرفوها من غيرهم.
- 3- موسى عبد اللاوي : الحضارة الإسلامية وآثارها على المدينة الغربية ، دار العلوم للنشر والتوزيع ، عنابة ، 2008. ص 19
- 4- عبد الحميد يونس: مرجع سابق، ص 222.
- 5 محمد عمارة : التراث في ضوء العقل ، دار الوحدة ، بيروت 1984. ص 165 ، و ينظر د. نجيب إبراهيم ود. رشدي منصور: التفكير الخرافي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1962، ص 123 ، ونظر: عبد الحميد يونس، مرجع سابق ص 115-116.
- 6- نقلا عن الحاجة خيرة رفاع المولودة بتاريخ 1945/03/14 بالأغواط، ربة بيت، مهتمة بالتراث الشفاهي.
- 7- نفس المقابلة.
- 8- محمد الجوهري : علم الفولكلور، دار المعارف ، القاهرة ، ط2، 1978، ص 19، 20.
- 9- علم الفولكلور، ص 36.
- 10- التوزيع : وهي جهد من أهل القرية يقدم تبرعا ، لكل من يقدم على بناء بيت جديد في القرية ، وتكون في الزراعة وغيرها من الأعمال ، وهذا يدلنا على التعاون الجماعي في الريف ، الذي ينتج روحية جماعية لتؤسس علاقات متينة أقوى من رباط الدّم أحيانا... وتنتهي عادة بتقديم مأكولات شعبية.
- 11- الأمثال الشعبية المطروحة في مقابلة مع الشيخ الحاج عبد الحفيظ ورنقي من مواليد 1927 بالأغواط، في الساعة الرابعة مساء بتاريخ 1914/06/12م.
- 12- نفس المقابلة.
- 13- نفس المقابلة.
- 14- نفس المقابلة.
- 15- هذه أدوات تستعمل في الفلاحة قديما ، أما اليوم أستبدلت بأدوات حديثة وبتقنية عالية وسريعة .